صوناتة الفيولونسيل والبيانو

صوناتة الفيولونسيل والبيانو
مصنف ٦٩، مقام لا كبير

شاءت الظروف أن أؤجل تقديم صوناتات الفيولونسيل إلى هذه الساعة المتأخرة فى عرضى لأعمال بيتهوڤن، مع أن خمس الصوناتات التى كتبها للبيانو والفيولونسيل، وثلاث المجموعات لتنويعات على ألحان هيندل وموزار ما فتئت تعتبر فى صدارة الأعمال التى تؤلف برامج عازفى هذه الآلة الفخيمة التى أصفها بينى وبين نفسى بذات الجلال، كما أسمى الفيولينة: ذات الدلال.

ومؤلفات بيتهوڤن للبيانو والآلات الوترية تابعت ثلاثة خطوط: أعمال للفيولينة والبيانو، وأعمال للفيولونسيل والبيانو، وأعمال البيانو والفيولينة والفيولونسيل (وهذه الأخيرة هى المعروفة بثلاثيات البيانو). وكان لبيتهوڤن فى كل خط من تلك الخطوط أثر المجددين: فتقدم بأعمال الفيولينة والبيانو خطوات عن موزار وصنع للفيولونسيل ما لم يصنعه لا موزار ولا هايدن. وحرر فى الثلاثيات كلا من الآلتين الوتريتين من هيمنة البيانو.

وعشر صوناتات للفيولينة والبيانو لا يستغنى عنها عازف، طالبًا، أو هاويًا، أو محترفًا صناعًا. وهى تمثل كلها حوارًا بين أنداد من عازفى البيانو والفيولينة: قدمت منها هنا أشهرها: الكرويتزر مقام لا، وهى التاسعة والدومينور المهداة لقيصر الروسيا، وهى السابعة، ثم الأخيرة وهى العاشرة، التى توصف بالباستورال، فالصوناتة الثالثة كنموذج من مؤلفات الحقبة الأولى.

ولم يعد بيتهوڤن لتأليف صوناتات البيانو والفيولينة بعد أن انتهى من العاشرة عام ١٨١٢.

أما صوناتات الفيولونسيل الخمسة فقد امتد تأليفها إلى مدى أطول: ألف الأولى والثانية خلال زيارتين لبرلين عام ١٧٩٦، فهما من مؤلفات الحقبة الأولى.

ثم ألف الثالثة، وهو فى أوج عظمته، إبان الحقبة الإبداعية الثانية، ١٨٠٨، وهى الصوناتة موضوع هذا الحديث.

أما الرابعة والخامسة فقد ألفهما سنة ١٨١٥، أى أن صوناتات الفيولونسيل الخمس يمتد تأليفها على الحقبات الإبداعية الثلاث، وعلى مدى عشرين عامًا، من سنة ١٧٩٦، وبيتهوڤن فى السادسة والعشرين، حتى بلوغه سن الخامسة والأربعين.

وقع اختيارى على الصوناتة الثالثة للبيانو والفيولونسيل، مقام لا فى الديوان الكبير، لأنها أجمل الخمسة وأكملها، أهداها بيتهوڤن إلى صديقه البارون فون جلايخنشتاين. وهى وإن ألفت فى ظروف سعيدة، فقد تأخر تقديم النسخة المطبوعة الأولى لهذا الصديق، إلى ما بعد غزو نابليون لإمبراطورية النمسا والمجر، واحتلال الجيش الفرنسى لڤينا. وبعد انتهاء الحرب، وعودة الأحوال الطبيعية، تلقى بيتهوڤن من الناشرين الألمان «برايتكوف وهيرتل» المؤلفات التى كان قد أرسلها قبل الحرب لتنسخ كليشهاتها وتطبع، ومن أهمها صوناتة الڤيولونسيل والبيانو مصنف رقم ٦٩ مقام لا كبير. فأضاف بيتهوڤن بخط يده على الاهداء هذه الكلمات In-ter lacrymas et luctum أى «وسط الدموع والأحزان». ولا نعرف إن كان بيتهوڤن عنى بهذه الجملة ما قاساه فى أثناء الحرب وحصار ڤينا، أم أنه يقصد المصاب الجلل الذى نزل بفن الموسيقى فى شخص عظيم من عظمائها، ألا وهو يوزف هايدن.

ففى ٢٦ مايو من عام ١٨٠٩ لم يتحمل قلب هايدن الشيخ ما حل ببلاده وقد أحس أصحابه وخلانه بان النهاية قريبة، وتحامل هايدن على نفسه وجلس إلى الهاربسيكورد لينشد بصوت الشيخ الفانى كلمات النشيد الوطنى الذى لحنه لبلاده ومليكه، وهو النشيد الذى يردد: ليحم الرب الإمبراطور فرانسيس.

وحمله الخلان من أمام الهاربسيكورد إلى سريره، فلم يفارقه حتى إذا ما انتصف ليل ٣١ مايو من عام ١٨٠٩ أسلم الروح يوزف هايدن، أبو السمفونية والرباعية الوترية.

والصوناتة التى أقدم ألفت قبل الحرب واحتلال فرنسا لفينا، حينما كان بيتهوفن هانئاً بنجاحه وتوفيقه. فقد ألف فى ذلك الوقت سمفونياته الرابعة والخامسة والباستورال، وكان كونشرتو البيانو المعروف بالإمبراطور ضمن رصيده من الروائع.

كان مطمئنًا إلى معاشه عندما قرر أصدقاؤه النبلاء فيما بينهم أن يتكفلوا لبيتهوفن بمعاش سنوى قدره ٤٠٠٠ فلورين، تحمل الأرشيدوق رودلف منه مبلغ ١٥٠٠ فلورين، والأمير كنسكى ١٧٠٠ والبرنس لوبكوفتش ٧٠٠ فلورين.

فلنستمع إلى قسم العرض، ويتألف من اللحنين الأساسيين تصل بينهما معبرة تمثل فى ذاتها لحنًا ثالثًا. ويصف السير أرنست ووكر E. Walker هذه الحركة بالوقار اللامع. ثم نسمع قسم التفاعل، ويعتمد فى أكثر على اللحن الأساسى الأول.

وأخيرًا نعود إلى الألحان الأساسية فيما يعرف بقسم إعادة العرض، مع ملاحظة «الكودا» الهامة التى تختم بها الحركة.

الحركة الثانية:

نموذج من أحسن ما يقدم لاسكرتسوات بيتهوفن. انتقل فيه الموسيقى إلى مقام لا فى الديوان الصغير، وكانت الحركة الأولى فى الديوان الكبير. يرى السير أرنست ووكر فى هذا الإسكرتسو لمحة من الشراسة، لا تخلو من بعض الخفة، وأرى فيه روح المرح والدعابة الناشفة، ما أبعدنا فيها عن الاسكرتسوات العاصفة الغاضبة.

الحركة الثالثة:

تبدأ «بأداجيو كانتابيلى» قصير، فى المقام الخامس من لا أى مقام مى. ويبدى أرنست إعجابه بهذا الأداجيو، وهو يتحول فى منتهاه ببراعة متناهية إلى مقام لا كبير، وتتحول الحركة إلى «الليجروفيفاتشى»، وهذه حركة جميلة، صيغت فى قالب الصوناتة، يغلب عليها اللحن الأساسى الأول، وهو من الألحان التى عدها روبرت شاوفلر من الموسيقات الجذرية فى مؤلفات بيتهوفن.

Allegro ma non tante - Scherzo (Allegro molto) - Adagio cantabile; Allegro vivace.